تراث وآثار

الكشف عن أسرار صور الرومانية

أعمال البعثة الفرنسية اللبنانية في صور تُعيد كتابة تاريخ المدينة وتعطي آثارها بعداً جديداً. فهذه الآثار التي كُشفت قبل 50 سنة لم تُدرس بتفاصيلها ووجوهها، ما يعطي لعمل هذا الفريق أهمية كبرى، ولا سيما أن النتائج الأوليّة مذهلة

جوان فرشخ بجالي

أهمية مدينة صور الرومانية ليست موضوع نقاش، وخصوصاً أن الآثار تقف شاهداً على هذه الفترة منذ أكثر من خمسين سنة. فعلماء الآثار كانوا خلال العقود الماضية قد نقّبوا هذه المعالم وأبرزوها للعالم وصنّفت المواقع الأثرية سياحية. ونشرت نتائج تلك الحفريات في المجلات العلمية، فحدّدت وظيفة كل مبنى. ولكن الحفريات والأبحاث التي تجريها البعثة اللبنانية ـ الفرنسية في صور تعيد خلط هذه الأوراق، وتعطي تفسيرات جديدة لمختلف المباني في الموقع البحري، المعروف باسم «آثار المدينة». يشرح الدكتور بيار لويس غاتييه، المدرّس في جامعة ليون ومدير الحفرية في صور، أنه «منذ سنة 2008 والعمل جار في منطقتين أثريّتين هما: الكاتدرائيةّ الصليبية والحمامات الرومانية، وقد أظهرت الدراسة الأوّلية والحفريات التي نقوم بها أن الحمّامات جزء من مجمع ضخم كان يضم إضافةً إلى غرف الاستحمام، ميدانين رياضيين وصالة مسقوفة ومدرجاً للعروض».

المدرج هو المبنى المربّع الشكل الذي كانت الحفريات السابقة قد حدّدته باعتباره سيركاً، وعُدّ في حينه مبنى منفرداً. ولكن غاتييه يؤكّد بحسب نتائج الحفريات أنه جزء تابع لمجمع الحمّامات وكانت تُجرى فيه العروض. أمّا عن الساحة التي تطل على البحر، والتي غُطّيت أرضيّتها بالفسيفساء، فيقول مدير الحفرية «إنها أحد الميدانين الرياضيين اللذين كانا يحدّان مجمّع الحمامات». ويكشف مدير الحفرية أن القسم المطل على البحر، الذي رُصفت أرضيته بالفسيفساء والمحاط على جانبيه بأعمدة الغرانيت، والذي كان يعدّ جزءاً من الطريق، كان صالة مسقوفة يرجّح أنها كانت تستعمل للتلاقي والتحادث... فجهة استعمال الحمامات في الفترة الرومانية تشبه إلى حد كبير نوادي الرياضة في عصرنا الحالي. فهي مكان للاجتماع والحفلات والاستحمام في الأحواض الكبيرة. فالحمّامات التركيّة نسخة مصغّرة عن الحمامات الرومانية التي تقسم غرفها إلى ثلاث: الباردة، والفاترة، والساخنة. ويقول غاتييه إن «سبب المحافظة على الجزء السفلي من الحمامات يعود إلى سرقة حجارتها لمدة قرون. فالناس كانوا يَعدّون الموقع خربة مهجورة يمكن الذهاب إليها في أي وقت وانتشال الحجارة الصلبة المنحوتة منها ومن ثم أخذها إلى مكان البناء، واستعمالها مجدداً. وظاهرة «نشل الحجارة» واضحة جداً في موقع الحمّامات وفي أكثر من مكان، ويقال إنّ مدينة عكا بنيت بحجارة مدينة صور الرومانية.

ويرى العالم الفرنسي أن الحفريات الحالية أظهرت أن القسم البارز من هذه الآثار يعود إلى الفترة البيزنطية، ما يشير إلى أن هذا المجمع دام استعماله حتى في تلك الفترة، ولكن في القرون الوسطى وقع في النسيان. إذ تغيّرت الثقافة فلم يعد الناس يهتمون بصيانة مبانٍ للحمامات بهذه الضخامة، ما يتطلّب مبالغ كبيرة. لذا شهد الموقع عملية تغيير في استعماله. فقصده الحرفيون وبنوا مشاغلهم فوق الأبنية القديمة. ويقول غاتييه إن «دراسة هذه المحترفات ستسمح بفهم العجلة «الاقتصادية» في صور في تلك الفترة، التي شهدت أيضاً تشييد الكاتدرائية الصليبية التي بقيت جدرانها وأعمدتها واقفة حتى بداية القرن العشرين. ويروي غاتييه أنه قبل تلك الفترة «كانت جدران الكاتدرائية جزءاً من سور المدينة، وأعمدتها بارزة للعيان لدرجة أن الرحّالة صوّروها في لوحاتهم في القرنين الثامن والتاسع عشر». أمّا عن الحفريات الأثرية داخل الكاتدرائية، فيؤكد بحسب مدير البعثة، أن الإفرنج هم من بنوها فوق جزء مأهول من المدينة البيزنطية. ويشرح غاتييه أن المعتقد السائد قبل هذه التنقيبات يقول إن هذه الكاتدرائية مبنية فوق كنيسة صور البيزنطية التي ذكرها المؤرخون، والتي بنيت هي نفسها على أطلال معبد إله صور الفينيقي ملكارت. ولكن بات الآن مؤكداً أن هذا المعتقد خاطئ. «فالكنيسة مبنيّة فوق بيوت وأسواق من الفترتين البيزنطية والإسلامية وليس في طبقاتها السفلية أيّ إشارة إلى موقع ديني أقدم منها».

أهمية هذه الحفريات الأثرية الحديثة العهد لا تتوقف على دراسة تاريخ المعالم الأثرية ووجهة استعمالها، بل تتخطّاهما لتحاول رسم الحياة اليومية في هذه المدينة في الفترتين الرومانية والبيزنطية، وذلك عبر دراسة قطع الفخار والمسكوكات. فقد عثر العلماء على فخّار مصنّع في مدينة صور في الفترات كلها، واكتشفوا قطعاً مستوردة. ويقول غاتييه إن دراسة القطع المستوردة ستسمح بتقديم شرح جديد للحياة الاقتصادية في المدينة، وخاصةً أنّ هناك تحولاً في التجارة. فقبل القرن السادس ميلادي كانت القطع مستوردة من المدن الواقعة إلى شمال صور مثل بيروت وصيدا وأنطاكيا... أمّا بعد القرن السادس، فباتت التجارة في اتجاه الجنوب أكثر، إذ طغت القطع الفخّارية المصرية والفلسطينية، وخاصةً تلك المستوردة من غزة.

تاريخ صور لم يُكتب نهائياً بعد، فالدراسات مستمرة والبعثة الفرنسية ـ اللبنانية ستعاود عملها في أوائل الصيف في محاولة منها لفهم حياة سكان تلك المدينة قبل 1500 و2000 سنة.

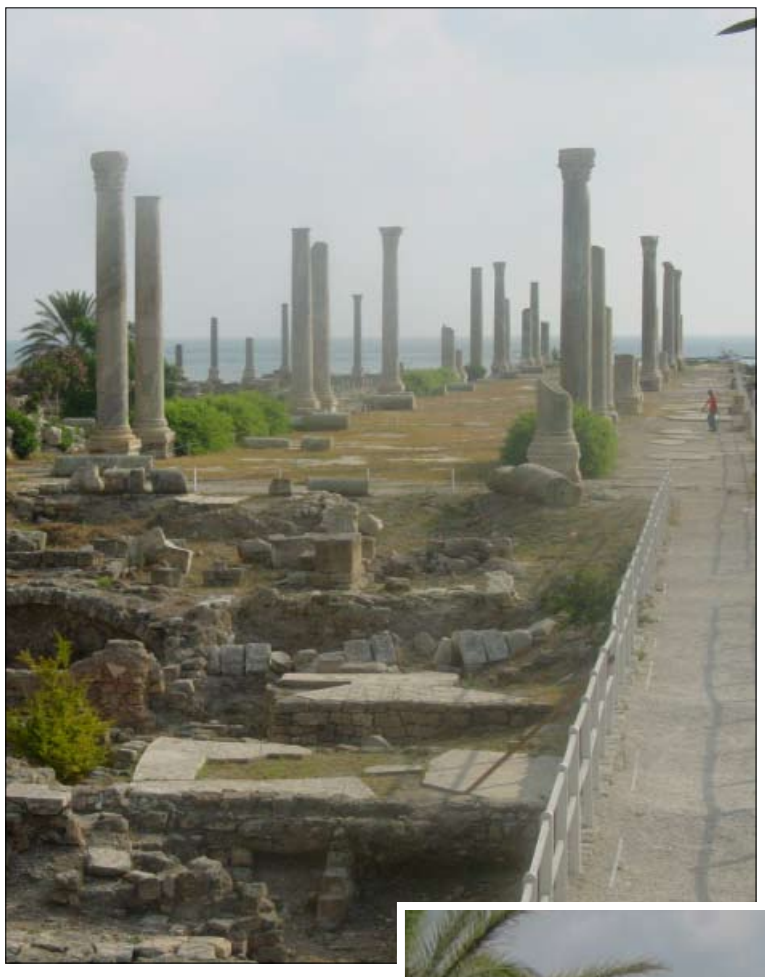

كان يعتقد بأن هذه إحدى الطرق الأساسية في المدينة ولكن تبين أنها صالة ضخمة كانت مسقوفة

عملية سرقة حجارة الحمامات الرومانية على مدى عقود

معرض صوَر لمخطوطات مؤلفين «لبنانيين» من القرون الوسطى

طرابلس ـ عبد الكافي الصمد

أقفل معرض «المخطوطات المصوّرة لمؤلفين وكتاب من لبنان في العصر الوسيط» أبوابه في مركز الصفدي الثقافي في طرابلس. المعرض الذي أتى ثمرة 40 سنة من الجهد الشخصي الذي بذله الدكتور عمر تدمري، عرض صوراً لـ75 مخطوطة كتبها مؤلفون «لبنانيون» بلغات مختلفة. المعرض كان لمناسبة ختام فعاليات بيروت عاصمة عالمية للكتاب. وهذا المعرض الذي أعدّه ووثّقه تدمري، وصوّره نجله الدكتور خالد تدمري، ضمّ وفق الأوّل «صوراً لمخطوطات موجودة في مكتبات ومتاحف كبرى في أمكنة عديدة في العالم، مثل سوريا والكويت والسعودية ومصر وكبريات المدن الأميركية والأوروبية. وأوضح تدمري أن المخطوطات المصوّرة «تعود لمؤلفين عاشوا في الفترة الممتدة من القرن الثامن الميلادي مع بداية الفتح الإسلامي، وصولاً إلى نهاية القرن الخامس عشر وفتح القسطنطينية. وأهمية هذا العمل التوثيقي أنه كشف عن هؤلاء المؤلفين المهمّين الذين كتبوا بلغات مختلفة، مثل العربية واليونانية وغيرهما من لغات تلك العصور. ويقول تدمري إن جمالية هذه الدراسة في أنها أعطت لهؤلاء المؤلّفين وجهاً آخر، فهم باتوا معروفين، وحدّدت جذورهم في بعض القرى اللبنانية النائية مثل شبعا ويونين ومشغرة وحدث الجبة وخربة روحا وعبيه والمنيطرة وغيرها».

ويصعب الوصول إلى هذه المخطوطات النادرة والمنتشرة في أكثر من 22 بلداً و60 مكتبة وجامعة. ولأن امتلاكها مستحيل، عمل تدمري على تصويرها بأكملها، ويقول: «الحصول على بعض من هذه الصور يتطلّب السفر مرات عدة، وفي حالات أخرى استطاع أصدقاء المساعدة، فتولوا عملية التصوير وأرسلوا النسخ».

وأشار تدمري إلى أن المخطوطات «صنّفها مؤلّفون وكتّاب عاشوا في المدن اللبنانية في العصر الوسيط، وقد تمّت الآن قراءتها ودراستها، والمعرض يهدف إلى نشرها ليتعرّف اللبنانيّون إلى تراث الأجداد وتنوّع أفكارهم وإبداعاتهم الثقافيّة والعلميّة والفنيّة». وما أثار انتباه تدمري هو أن الطرابلسيين والبعلبكيين «استأثروا بأكثر المؤلفات، يليهم الصوريّون والصيداويّون. أما بيروت، فلم يصلنا منها إلا مؤلّف واحد من العصر الوسيط!»، مشيراً إلى أن «مواضيع المخطوطات تنوّعت بين الأدب والتاريخ والفقه والأصول والتراجم والسِيَر وعِلم الفروسية والطبّ والفلك والموسيقى والهندسة والفلسفة ومقارنة الأديان والمعارف العامة، وهي باللغات العربيّة واللاتينيّة والسريانيّة والكرشونيّة».

وأوضح تدمري أن «بعض أبحاثنا أوصلتنا إلى التعرّف إلى نحو ثلاثين مؤلّفاً طرابلسيّاً عاشوا في عصر دولة المماليك، وقد صنّفوا نحو مئتي كتاب في مختلف الفنون، طُبع القليل منها، وبقي القليل مخطوطاً، وضاع الأكثر منها، ومثل ذلك يُقال عن المؤلّفين البعلبكيين». وأعرب عن اعتقاده بأن «مؤلفات كتّاب هذه المدن عبر القرون الوسطى كانت تناهز ألف مخطوطة ضاع معظمها في ظروف مختلفة»، وآمل أن «يكون هذا المعرض نواةً لمعرض أكبر، وأن يكون دافعاً لوزارتي الثقافة والتربيّة، والمكتبة الوطنيّة ومؤسّسة المحفوظات الوطنيّة، كي تُعنى بهذا الواجب الثقافي والحضاري والفكري، وتخصّص جانباً من نفقاتها لجمع هذه المخطوطات، أو على الأقل إتمام تصويرها لوضعها في متناول الباحثين».

صور مخطوطات القرون الوسطى هي إنجاز خاص تطلب 40 سنة من العمل (الأخبار)